فصـــل

[السؤال الأول]

فنقول : أما السؤال الأول وهو قول السائل[1] : « **قد اشتهر عندكم بأن أهل الكتاب ما منعهم من الدخول فى الإسلام إلا الرياسة والمأكلة لا غير** » .

فكلام جاهل بما عند المسلمين وبما عند الكفار ، أما المسلمون فلم يقولوا إنه لم يمنع أهل الكتاب من الدخول فى الإسلام إلا الرياسة والمأكلة لا غير ، وإن قال هذا بعض عوامهم فلا يلزم جماعتهم ، والممتنعون من الدخول فى الإسلام من أهل الكتاب وغيرهم جزء يسير جداً بالإضافة إلى الداخلين فيه منهم ، بل أكثر الأمم دخلوا فى الإسلام طوعاً ورغبة واختياراً لا كرهاً ولا اضطراراً ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى أهل الأرض وهم « خمسة أصناف » قد أطبقوا الأرض ؛ يهود ، ونصارى ، ومجوس ، وصابئة ، ومشركون . وهذه الأصناف هى التى كانت قد استولت على الدنيا من مشارقها إلى مغاربها .

فأما « اليهود » فأكثر ما كانوا باليمن وخيبر والمدينة وما حولها ، وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارى ، وكان منهم بأرض فارس فرقة مستذلة مع المجوس وكان منهم بأرض العرب فرقة وأعز ما كانوا بالمدينة وخيبر ، وكان الله سبحانه قد قطّعهم فى الأرض أُمماً وسلبهم المُلك والعز .

وأما « النصارى » فكانوا طبق الأرض ، فكانت الشام كلها نصارى ، وأرض المغرب كان الغالب عليهم النصارى وكذلك أرض مصر والحبشة والنوبة والجزيرة والموصل وأرض نجران وغيرها من البلاد .

وأما « المجوس » فهم أهل مملكة فارس وما اتصل بها .

وأما « الصابئة » فأهل حران وكثير من بلاد الروم .

وأما « المشركون » فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها ، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة ، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم البتة ، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : « الأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان » . وهذه الأديان الستة مذكورة فى آية الفصل فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [الحج : ١٧] . فلما بعث الله رسول الله ﷺ استجاب له وخلفائه بعده أكثر أهل الأديان طوعاً واختياراً ، ولم يُكرِه أحداً قَطُّ على الدين ،

---

(١) فى أصل المخطوط : « فنقول : أما المسألة الأولى وهى .. » وقد استحسنا ما أثبتناه .

وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله ، وأما مَنْ سالمه وهادنه فلم يقاتله و لم يكرهه على الدخول فى دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وهذا نفى فى معنى النهى ، أى لا تكرهوا أحداً على الدين ، نزلت هذه الآية فى رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصَّروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين ، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول فى الإسلام[١] .

والصحيح أن الآية على عمومها فى حق كل كافر[٢] **وهذا ظاهر على قول مَنْ يُجَوِّزُ أخذ الجزية** من جميع الكفار ، فلا يكرهون على الدخول فى الدين ، بل إما أن يدخلوا فى الدين وإما أن يعطوا الجزية ، كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة ، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان ، ومن تأمل سيرة النبى ﷺ تبين له أنه لم يُكرِه أحداً على دينه قط ، وأنه إنما قاتل من قاتله .. وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفى لهم بعهدهم مااستقاموا له كما قال تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧]، ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم ، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم ، فَمَنَّ على بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وقتل بعضهم ، وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده ، فعند ذلك غزاهم فى ديارهم ، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ، ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم .

والمقصود : أنه ﷺ لم يُكرِه أحداً على الدخول فى دينه **ألبتة** ، وإنما دخل الناس فى دينه اختياراً وطوعاً فأكثر أهل الأرض دخلوا فى دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً . فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم كما قال النبى ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « **إنك ستأتى قوماً أهلَ كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** »[٣] وذكر الحديث ، ثم دخلوا فى الإسلام من غير رغبة ولا رهبة ، وكذلك من أسلم من يهود المدينة ، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام مذكورون فى كتب السير والمغازى لم يسلموا رغبة فى الدنيا ولا رهبة من السيف بل أسلموا فى حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم

---

(١) انظر تفاصيل أكثر عن سبب نزول هذه الآية فى : أسباب النزول للواحدى [صـ٥٧ - ٥٩] ولباب المنقول للسيوطى [صـ٣٤] والصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادى الوادعى [صـ٣٩٠ - ٤٠٠] وتفسير ابن كثير [١ / ٣١٠ ، ٣١١] .

(٢) ويؤيده ما نص عليه ابن كثير فى تفسيره قائلاً : « وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عاماً » [١/٣١٠] .

(٣) صحيح . البخارى فى الزكاة . باب لا تُؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة [٣ / ٣٧٧ ، ٣٧٨] وفى التوحيد . باب ما جاء فى دعاء النبى أمته إلى توحيد الله [١٣/٣٥٩] ومسلم فى الإيمان . باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام [٢٩ ، ٣١]

ومحاربة أهل الأرض لهم من غير سوط ولا نوط ، بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم نفعهم بالمال والبدن مع ضعف شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم .

فكان أحدهم يعادى أباه وأمه وأهل بيته وعشيرته ، ويخرج من الدنيا رغبة فى الإسلام لا لرياسة ولا مال ، بل ينخلع من الرياسة والمال ويتحمل أذى الكفار من ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهم ولا يصرفه ذلك عن دينه . فإن كان كثير من الأحبار والرهبان والقسيسين ومن ذكره هذا السائل قد اختار الكفر ، فقد أسلم جمهور أهل الأرض من فرق الكفار ولم يبق إلا الأقل بالنسبة إلى من أسلم ، فهؤلاء نصارى الشام كانوا ملء الشام ثم صاروا مسلمين إلا النادر ، فصاروا فى المسلمين كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، وكذلك المجوس كانت أمة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى فأطبقوا على الإسلام و لم يتخلف منهم إلا النادر ، وصارت بلادهم بلاد إسلام ، وصار من لم يسلم منهم تحت الجزية والذلة وكذلك اليهود أسلم أكثرهم و لم يبق منهم إلا شرذمة قليلة مقطعة فى البلاد .

فقول هذا الجاهل : « إن هاتين الأمتين لا يحصى عددهم إلا الله كفروا بمحمد ﷺ »[1] كذب ظاهر وبهت مبين ، حتى لو كانوا كلهم قد أجمعوا على اختيار الكفر لكانوا فى ذلك أسوة قوم نوح ، وقد أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويريهم من الآيات ما يقيم حجة الله عليهم وقد أطبقوا على الكفر إلا قليلاً منهم كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود : ٤٠] ، وهم كانوا أضعاف أضعاف هاتين الأمتين الكافرتين أهل الغضب وأهل الضلال ، وعَادٌ أطبقوا على الكفر وهم أمة عظيمة عقلاء حتى استوصلوا بالعذاب ، وثمود أطبقوا جميعهم على الكفر بعد رؤية الآية العظيمة التى يؤمن على مثلها البشر ، ومع هذا فاختاروا الكفر على الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾ [فصلت : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٣٨] ، فهاتان أمتان عظيمتان من أكبر الأمم قد أطبقتا على الكفر مع البصيرة ، فأمتى الغضب والضلال إذْ أطبقتا على الكفر فليس ذلك ببدع ، وهؤلاء قوم فرعون مع كثرتهم قد أطبقوا على جحد نبوة موسى مع تظاهر الآيات الباهرة آية بعد آية فلم يؤمن منهم إلا رجل واحد كان يكتم إيمانه[2] .

وأيضاً ، يقال للنصارى : هؤلاء اليهود مع كثرتهم فى زمن المسيح حتى كانوا مِلْءَ بلاد الشام كما قال تعالى : ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**

---

(١) لم ترد هذه العبارة فى نص سؤال السائل ، ويبدو أن ابن القيم قد أورد مجمل السؤال ، ولم يذكره بنصّه .

(٢) إذا كان ابن القيم يقصد بقوم فرعون خاصة بيته وقصره فما ذكره صحيح من إيمان رجل واحد ، وإذا كان المراد من قوم فرعون عامة الناس فقد آمن مع موسى أكثر من رجل واحد وإن كانوا عدداً قليلاً منهم السحرة على سبيل المثال لا الحصر .

الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ،كانوا قد أطبقوا على تكذيب المسيح وجَحْدِ نبوته ، وفيهم الأحبار والعُبّاد ، والعلماء حتى آمن به الحواريون [١] فإذا جاز على اليهود وفيهم الأحبار والعباد والزُّهاد وغيرهم الإطباق على جحد نبوة المسيح والكفر به مع ظهور آيات صدقه كالشمس جاز عليهم إنكار نبوة محمد ﷺ ، ومعلوم أن جواز ذلك على أمة الضلال الذين هم أضل من الأنعام ، وهم النصارى أولى وأحرى .

فهذا السؤال الذى أورده هذا السائل وارد بعينه فى حق كل نبى كذبته أمة من الأمم ، فإن صَوَّبَ هذا السائل رأى تلك الأمم كلها فقد كفر بجميع الرسل ، وإن قال : إن الأنبياء كانوا على الحق وكانت تلك الأمم مع كثرتها ووفور عقولها على الباطل فلأن يكون المكذبون بمحمد ﷺ وهم الأقلون الأذلون الأرذلون من هذه الطوائف على الباطل أولى وأحرى ، وأى أمة من الأمم اعتبرتها وجدت المصدقين بنبوة محمد ﷺ جمهورها وأقلها وأراذلها هم الجاحدون لنبوته ، فرقعة الإسلام قد اتسعت فى مشارق الأرض ومغاربها غاية الاتساع بدخول هذه الأمم فى دينه وتصديقهم برسالته ، وبقى من لم يدخل منهم فى دينه وهم من كل أمة أقلها، وأين يقع النصارى المكذبون برسالته اليوم من أمة النصرانية الذين كانوا قبله؟! وكذلك اليهود والمجوس والصابئة لا نسبة للمكذبين برسالته بعد بعثه إلى جملة تلك الأمة قبل بعثه .

وقد أخبر تعالى عن الأمم التى أطبقت على تكذيب الرسل ودمرها الله تعالى ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ، فأخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم وأنه عَمَّهُمْ بالإهلاك ، وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣] ، ومعلوم قطعاً أن الله تعالى لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم الهدى فاختاروا عليه الكفر ، ولو لم يتبين لهم الهدى لم يهلكهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] ، أى فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، ومعلوم قطعاً أنه لم يصدق نبى من الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ولم يتبعه من الأمم ما صدق محمد بن عبد الله ﷺ ، والذين اتبعوه من الأمم أضعاف هاتين

---

(١) هم أصحاب المسيح عليه السلام وخاصته الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وبادروا إلى الإيمان به . وتتلمذوا له ، وتعلموا منه ، وكانوا اثنى عشر رجلاً ، وهذا اللفظ لم يعرف عبرانيا . [انظر نظرات فى إنجيل برنابا المبشر بنبوة النبى محمد ﷺ للأستاذ محمد على قطب ص٤٦] .

الأمتين المكذبتين مما لا يحصيهم إلا الله ولا يستريب[1] من له مُسْكَةٌ من عقل[2] أن الضلال والجهل والغى وفساد العقل إلى من خالفه وجحد نبوته أقرب منه إلى أتباعه ومن أقر بنبوته .

وحينئذ فيقال : كيف جاز على هؤلاء الأمم التى لا يحصيهم إلا الله الذين قد بلغوا مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف طبائعهم وأغراضهم وتباين مقاصدهم الإطباق على اتباع من يكذب على الله وعلى رسله وعلى العقل ويحل ما حرم الله ورسله ويحرم ما أحله الله ورسله ، ومعلوم أن الكاذب على الله فى دعوى الرسالة هو شر خلق الله وأفجرهم وأظلمهم وأكذبهم .

ولا يشك من له أدنى عقل أن إطباق أكثر الأمم على متابعة هذا النبى محمد ﷺ وخروجهم عن ديارهم وأموالهم ومعاداتهم آباءهم وأبناءهم وعشائرهم فى متابعته وبذلهم نفوسهم بين يديه من أمحل المحال ؟ فتجويز اختيارهم الكفر بعد تبين الهدى على شرذمة قليلة حقيرة ها أغراض عديدة من هاتين الأمتين أولى من تجويز ذلك على المسلمين الذين أطبقوا مشارق الأرض ومغاربها ، وهم أعقل الأمم وأكملها فى جميع خصال الفضل .

وأين عقول عباد العجل وعباد الصليب الذين أضحكوا سائر العقلاء على عقولهم ودلوهم على مَبْلغها بما قالوه فى معبودهم من عقول المسلمين ؟ وإذا جاز اتفاق أمة ـ فيها من قد ذكره هذا السائل ـ على أن رب العالمين وخالق السموات والأرضين نزل عن عرشه وكرسى رفعته ودخل فى بطن امرأة فى محل الحيض والطمث عدة شهور ثم خرج من فرجها طفلاً يمص الثدى ويبكى ، ويكبر شيئاً فشيئاً ، ويأكل ويشرب ويبول ، ويصح ويمرض ، ويفرح ويحزن ، ويلذ ويألم ، ثم دبر حيلة على عدوه إبليس بأن مَكَّن أعداءه اليهود من نفسه ، فأمسكوه وساقوه إلى خشبتين يصلبونه عليهما ، وهم يجرونه إلى الصلب ، والأوباش والأراذل قُدَّامَه وخلفه وعن يمينه وعن يساره ، وهو يستغيث ويبكى فقربوه من الخشبتين ، ثم توجوه بتاج من الشوك ، وأوجعوه صَفْعاً ، ثم حملوه على الصليب وسمّروا يديه ورجليه وجعلوه بين لصين ، وهو الذى اختار هذا كله لتتم له الحيلة على إبليس ليخلص آدم وسائر الأنبياء من سجنه ، ففداهم بنفسه حتى خلصوا من سجن إبليس .

وإذا جاز اتفاق هذه الأمة وفيهم الأحبار والرهبان والقسيسون والزهاد والعباد والفقهاء ومن ذكرتم على هذا القول فى معبودهم وإلههم حتى قال قائل منهم وهو من أكابرهم عندهم : اليد التى خلقت آدم هى التى باشرت المسامير ونالت الصلب ، فكيف لا يجوز عليهم الاتفاق على تكذيب من جاء بتكفيرهم وتضليلهم ، ونادى سرًّا وجهراً بكذبهم على الله وشتمهم

---

(١) رابه الأمر وفلانٌ : جعله شاكًا ، واسترابه : رأى منه ما يريبه .

(٢) المُسْكَةُ : العقل الوافر والرأى .. يقال : رجل ذو مسكة : أى رأى وعقل . ولا مسكة له : لا عقل له .

له أقبح شتم ، وكذبهم على المسيح ، وتبديلهم دينه ، وعاداهم وقاتلهم ، وبرأهم من المسيح وبرأه منه ، وأخبر أنهم وقود النار وحطب جهنم . فهذا أحد الأسباب التى اختاروا لأجلها الكفر على الإيمان وهو من أعظم الأسباب .

فقولكم: «إن المسلمين: يقولون إنهم لم يمنعهم من الدخول فى الإسلام إلا الرياسة والمأكلة لا غير » كذب على المسلمين ، بل الرياسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة لهم من الدخول فى الدين ، وقد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم فلما تبين لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا : لو دخلنا فى الإسلام لكنا من أقل المسلمين لا يُأبه لنا ، ونحن متحكمون فى أهل ملتنا فى أموالهم ومناصبهم ولنا بينهم أعظم الجاه وهل منع فرعون وقومه من اتباع موسى إلا ذلك ؟!

أبو جهل يعترف بصدق نبوة محمد ﷺ

والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً فمنها : **الجهل به**، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ، فإن مَنْ جَهِل شيئاً عاداه وعادى أهله فإن انضاف إلى هذا السبب بغض مَنْ أمَرَه بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من القبول أقوى ، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرباه[1] على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قَوِىَ المانع ، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذى دعى إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه قَوِىَ المانع من القبول جداً . فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله ﷺ ازداد المانع من قبول الحق قوة ، فإن هرقل عرف الحق وهَمَّ بالدخول فى الإسلام فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه فاختار الكفر على الإسلام بعد ما تبين له الهدى ، كما سيأتى ذكر قصته إن شاء الله تعالى .

ومن أعظم هذه الأسباب (**الحسد**) فإنه داء كامن فى النفس ، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه وأوتى ما لم يؤت نظيره فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه . وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد ؟! فإنه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غَصَّ بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة ، وهذا الداء هو الذى منع اليهود من الإيمان بعيسى ابن مريم وقد علموا علماً لا شك فيه أنه رسول الله جاء بالبينات والهدى فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان وأطبقوا عليه ، وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء .

هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تخالفها ولم يقاتلهم ، وإنما أتى بتحليل

---

(١) مرباه : أى نشأته على ما كان عليه آباؤه .

بعض ما حرم عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً ، وجاء مكملاً لشريعة التوراة[1] ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الإيمان ، فكيف يكون حالهم مع نبى جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع ، مبكتاً لهم بقبائحهم ، ومنادياً على فضائحهم ، ومخرجاً لهم من ديارهم ، وقد قاتلوه وحاربوه وهو فى ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم ويعلو هو وأصحابه وهم معه دائماً فى سَفَال[2] ، فكيف لا يملك الحسد والبغى قلوبهم ؟! وأين يقع حالهم معه من حالهم مع المسيح وقد أطبقوا على الكفر به من بعد ما تبين الهدى ؟ وهذا السبب وحده كَافٍ فى رد الحق ، فكيف إذا انضاف إليه زوال الرياسات والمأكل كما تقدم ؟

وقد قال المسور بن مخرمة[3] ـ وهو ابن أخت أبى جهل ـ لأبى جهل : يا خال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال : يـٰابن أختى ! والله لقد كان محمد ﷺ فينا وهو شاب يدعى الأمين ، فما جربنا عليه كذباً قط . قال : يا خال ! فما لكم لا تتبعونه ؟! قال : يـٰابن أختى تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى فمتى ندرك مثل هذه ؟

وقال الأخنس بن شريق يوم بدر لأبى جهل : يا أبا الحكم ! أخبرنى عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟

علماء اليهود يعرفون النبى ويكتمون الحق

وأما « اليهود » فقد كان علماؤهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة ، قال : هل تدرى عما كان إسلام أسد

---

(١) لم يأت عيسى عليه السلام لنقض شريعة موسى عليه السلام ، وإنما جاء مكملا لها ومصححا « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد ، أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » [متى ٥ : ١٧ ، ١٨] .

ويقول الأستاذ : أحمد ديدات فى ذلك « وبخصوص يسوع المسيح عندما ارتاب فيه اليهود ربما أن يكون محتالا بأهداف للمروق عن الدين الحق ، وتخريب تعاليمهم . الأمر الذى اقتضى من يسوع المسيح أن يبذل جهودا جبارة ليثبت لهم أنه لم يأت بدين جديد بشريعة جديدة ، وبأحكام جديدة على الإطلاق .. وبعبارة أخرى . إنه لم يأت بأى شريعة جديدة ، أو أى أحكام جديدة . إنما جاء ليكمل الشريعة القديمة .. » انظر كتاب : ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ [ص ٣١ ـ ٣٢] ط دار المنار .

(٢) سفال : أى فى نزول إلى أسفل ، والمراد أنه فى انتصار وقوة وهم فى انهزام وضعف .

(٣) المسور بن مَخْرَمَة بن نوفل بن أُهَيْب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أبو عبد الرحمن ، له ولأبيه صحبة ، مات سنة ٦٤ هـ [التقريب ٢/٢٤٩]

وثعلبة ابنى شعبة وأسد بن عبيد ، لم يكونوا من بنى قريظة ولا النضير كانوا فوق ذلك ؟ فقلت : لا ، قال : فإنه قدم علينا رجل من الشام من اليهود يقال له : ابن الهيبان فأقام عندنا ، والله ما رأينا رجلاً يصلى الخمس خيراً[1] منه ، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين ، فكنا إذا قحطنا وقَلَّ علينا المطر نقول : يـٰابن الهيبان اخرج فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة ، فنقول : كم ؟ فيقول : صاع من تمر ، أو مُدَّيْنِ من شعير ، فنخرجه ، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه نستسقى فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمطر ويمر بالشعاب ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة ، فحضرته الوفاة واجتمعنا إليه ، فقال : يا معشر يهود ! أترون ما أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قالوا : أنت أعلم ، قال : فإنى إنما خرجت أتوقع نبى قد أظل زمانه ، هذه البلاد مهاجره ، فاتبعوه ولا يسبقن إليه غيركم إذا خرج ، يا معشر اليهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممن يخالفه فلا يمنعكم ذلك منه ، ثم مات ، فلما كانت الليلة التى فُتحت فيها قريظة قال أولئك الثلاثة الفتية وكانوا شباناً أحداثاً : يامعشر اليهود ، والله إنه للذى ذكر لكم ابن الهيبان ، فقالوا : ما هو به ، قالوا : بلى والله إنه لصفته ، ثم نزلوا وأسلموا وخلوا أموالهم وأهليهم[2] .

قال ابن إسحاق : وكانت أموالهم فى الحصن مع المشركين فلما فُتح رُدت عليهم .

وقال ابن إسحاق : حدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد قال : كان بين أبياتنا يهودى فخرج على نادى قومه بنى عبد الأشهل ذات غداة فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان ، قال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت وذلك قبيل مبعث النبى ﷺ ، فقالوا : ويحك يا فلان ! وهذا كائن أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون بأعمالهم ؟! قال : نعم والذى يحلف به لوددت أن أحظى من تلك النار أن تُوقِدُوا لى أعظم تنور فى داركم فتحمونه ثم تقذفونى فيه ثم تطبقون على وإنى أنجو من النار غداً ، فقيل : يا فلان ما علامة ذلك ؟ قال : نبى يُبعث من ناحية هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن ، قالوا : فمتى نراه ؟ فرمى بطرفه فرآنى وأنا مضطجع بفناء باب أهلى وأنا أحدث القوم ، فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وإنه لحى بين أظهرنا ، فآمنا به

---

(١) إذا كان الرجل يهوديا فإن صلاته ستكون ثلاث مرات ، والصلاة عند النصارى سبع مرات ، أما المسلمون فصلاتهم خمس مرات .

(٢) إسناده حسن . والسيرة النبوية لابن هشام تحت عنوان « إسلام يهود : أسد وثعلبة ابنى سعية وابن عمهما هكذا « ثعلبة بن سعية . وأسيد بن سعْيَة » [١/١٢٩ ، ١٣٠] والبداية والنهاية لابن كثير [٤/١٢١] .

وصدقناه وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا : يا فلان ألست الذى قلت ما قلت وأخبرتنا به ؟! قال : ليس به[1] .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال : حدثنى أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به ففينا وفيهم أنزل الله عز وجل : ﴿ **وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾[2] [البقرة : ٨٩] .

وذكر الحاكم وغيره عن ابن أبى نجيح عن على الأزدى قال : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبى يحكم بيننا وبين الناس[3] .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، وكلما التقوا هزمت يهود خيبر فعاذت اليهود بهذا الدعاء ، فقالت : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأُمِّى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان فلما بُعث النبى ﷺ كفروا به فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يعنى بك يا محمد ﴿ **فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾[4] ، « يستفتحون » أى يستنصرون .

وذكر الحاكم وغيره أن بنى النضير لما أُجْلُوا من المدينة أقبل عمرو بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر ثم رجع إلى بنى قريظة فوجدهم فى الكنيسة فنفخ فى بوقهم فاجتمعوا ، فقال الزبير بن باطا[5] : يا أبا سعد أين كنت منذ اليوم فلم نَرَكَ ، وكان لا يفارق الكنيسة وكان يتأله فى اليهود به . قال : رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها ، رأيت إخواننا قد جَلُوا بعد ذلك العزِّ والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروج ذُلٍّ ، ولا والتوراة ما سلط هذا على قوم قَطُّ لله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك

---

(١) إسناده حسن . السيرة النبوية لابن هشام عن محمود بن لبيد أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش [١٢٩/١] .

(٢) إسناده حسن . السيرة النبوية لابن هشام [١٢٨/١] وابن كثير فى تفسيره [١٢٤/١] والصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادى الوادعى [ص ٢١] .

(٣) إسناده ضعيف . عبد الله بن أبى نجيح ثقة ، لكنه يدلس ، ولم يصرح بالتحديث فى سماعه ، وإنما عنعن الحديث .

(٤) إسناده ضعيف . الحاكم فى المستدرك وقال : أدت الضرورة إلى إخراجه فى التفسير وهو غريب من حديثه ، وتعقبه الذهبى بقوله : فعبد الملك متروك هالك [٢٦٣/٢] والواحدى فى أسباب النزول [ص ١٨] والسيوطى فى لباب المنقول [ص ١٢] .

(٥) انظر صفة مقتله فى السيرة النبوية لابن هشام [١٧٧/٣ - ١٧٨] والبداية والنهاية لابن كثير [١٢٥/٤] .

بابن الأشرف[1] فى عزة بنيانه فى بيته آمناً ، وأوقع بابن سنينة[2] سيدهم ، وأوقع ببنى قينقاع[3] فأجلاهم وهم جُلُّ اليهود وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة ـ حصرهم النبى ﷺ ، فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم ، فَكُلِّم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب ـ يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمداً ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبو عمرو بن حواس وهما أعلم اليهود جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا فأسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم ، فأعاد هذا الكلام ونحوه وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء ، فقال الزبير بن باطا : قد والتوراة قرأت صفته فى كتاب التوراة التى أنزلت على موسى ليس فى المثانى التى أحدثنا ، فقال له كعب بن أسد : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت ، قال : ولم فوالتوراة ما حُلْتُ بينك وبينه قط ؟ قال الزبير : بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا ، فأقبل عمرو بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا فى ذلك إلى أن قال كعب : ما عندى فى ذلك إلا ما قلت ، ما تطيب نفسى أن أصير تابعاً .

وهذا المانع هو الذى منع فرعون من اتباع موسى ، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى عليه السلام ، فقال له وزيره هامان : « بينا أنت إله تُعبد تصبح تَعبد رباً غيرك » قال : صدقت .

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر [بن محمد بن عمرو بن حزم] قال : حدثت عن صفية بنت حيى أنها قالت : كنت أحبَّ ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه ثم جاءا من العشى ، فسمعت عمى يقول لأبى أهو هو ؟ قال : نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما فى نفسك منه، قال: عداوته والله مابقيت.[4]

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله سبحانه عن أذاهم لموسى ونهانا عن التشبه بهم فى ذلك فقال : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء ؛ قتلوا زكريا وابنه يحيى[5] وخلقاً كثيراً من الأنبياء ، حتى قتلوا فى يوم سبعين نبياً وأقاموا السوق فى آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً .

واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم ، وألقى

---

(١) انظر صفة مقتله فى السيرة [٣/٣٦ - ٤٠] والبداية والنهاية [٤/٥ - ٩] .

(٢) ويقال : ابن سينية كما فى السيرة لابن هشام [٣/٤١ ، ٤٢] والبداية والنهاية [٤/٨ ، ٩] .

(٣) انظر السيرة النبوية [٣/٣٣ - ٣٥] والبداية والنهاية [٤/٣ - ٥] .

(٤) إسناده حسن . السيرة النبوية لابن هشام [٢/٣٢٩ ، ٣٣٠] والبداية والنهاية [٣/٢١٢] .

(٥) فيما يختص بمسألة قتل زكريا ويحيى عليهما السلام أو موتهما .

انظر : البداية والنهاية لابن كثير [٢/٥٢ - ٥٥] وقصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار [ص ٣٦٨ ، ٣٦٩] والنبوة والأنبياء للشيخ الصابونى [ص ٣١٠ ، ٣١٤ - ٣١٦] .

شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه[1] .

وراموا قتل خاتم النبيين ﷺ مراراً عديدة والله يعصمه منهم .

ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التى ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر .

النصارى يسبّون الخالق ، وينكرون رسالة نبينا ﷺ

وقد ذكرنا اتفاق أمة الضلال وعباد الصليب على مسبة رب العالمين أقبح مسبة ، على ما يعلم بطلانه بصريح العقل ، فإن خفى عليهم أن هذا مسبة لله مع أن العقل يحكم ببطلانه وبفساده من أول وهلة لم يكثر على تلك العقول السخيفة أن تسب بشراً أرسله الله ، وتجحد نبوته ، وتكابر ما دَلَّ عليه صريح العقل من صدقه وصحة رسالته ، فلو قالوا فيه ما قالوا لم يبلغ بعض قولهم فى رب الأرض والسموات الذى صاروا به ضحكة بين جميع أصناف بنى آدم .

فأمة أطبقت على أن الإله الحق ـ سبحانه عما يقولون ـ صُلب وصُفع وسُمّر ووُضع الشوك على رأسه ودُفن فى التراب ، ثم قام فى اليوم الثالث وصعد وجلس على عرشه يدبر أمر السموات والأرض ، لا يكثر عليها أن تطبق على جحد نبوة من جاء بسبها ولعنها ومحاربتها وإبداء معايبها والنداء على كفرها بالله ورسوله ، والشهادة على براءة المسيح منها ومعاداته لها ثم قاتلها وأذلها وأخرجها من ديارها وضرب عليها الجزية ، وأخبر أنها من أهل الجحيم خالدة مخلدة لا يغفر الله لها وأنها شر من الحمير ، بل هى شر الدواب عند الله .

وكيف لا ينكر[2] **على أمة أطبقت على صلب معبودها وإلاهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته** وعظمته ، وكان ينبغى لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه ، وأن تهينه غاية الإهانة إذ صُلب عليه إلاهها الذى يقولون تارة : إنه الله ، وتارة يقولون : إنه ابنه ، وتاره يقولون :

---

(١) انظر **قصص الأنبياء** للشيخ عبد الوهاب النجار حيث حسم الأمر فيما يختص بقضية صلب المسيح وإلقاء الشبه على أحد تلاميذه وهو «**يهوذا الإسخريوطى**» [ص ٤٢٢ ـ ٤٢٦] .

وانظر دراسة حديثة للداعية أحمد **ديدات** بعنوان «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء» ترجمة على الجوهرى . وانظر إنجيل برنابا [٢١٧ : ٨ – ٨٣ ، ٢٢٠ : ١ – ٢ ، ٢٢١ : ١٥ – ١٩] .

(٢) عبارة المخطوطة «وكيف ينكر» والأصح ما أثبتناه .

ثالث ثلاثة[1] . فجحدت حق خالقها وكفرت به أعظم كفر وسبته أقبح مسبة ، وأن تجحد حق عبده ورسوله وتكفر به .

وكيف لا ينكر[2] على أمة قالت فى رب الأرض والسموات : إنه ينزل من السماء ليكلم الخلق بذاته لئلا يكون لهم حجة عليه ، فأراد أن يقطع حجتهم بتكليمه لهم بذاته لترتفع المعاذير عمن ضيّع عهده بعدما كلمه بذاته ، فهبط بذاته من السماء ، والتحم فى بطن مريم ، فأخذ منها حجاباً ، وهو مخلوق من طريق الجسم ، وخالق من طريق النفس ، وهو الذى خلق جسمه وخلق أمه ، وأمه كانت من قبله بالناسوت ، وهو كان من قبلهما باللاهوت ، وهو الإله التام ، والإنسان التام ومن تمام رحمته تبارك وتعالى على عباده أنه رضى بإراقة دمه عنهم على خشبة الصليب ، فمكّن أعداءه اليهود من نفسه ليتم سخطه عليهم ، فأخذوه وصلبوه وصفعوه وبصقوا فى وجهه ، وتوجوه بتاج من الشوك على رأسه ، وغار دمه فى أصبعه لأنه لو وقع منه شىء إلى الأرض ليبس كل ما كان على وجهها ، فثبت فى موضع صلبه النوار .

ولما لم يكن فى الحكمة الإلهية الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصى الذى ظلمه أو استهان بقدره لاعتلاء منزلة الرب وسقوط منزلة العبد أراد سبحانه أن ينتصف من الإنسان الذى هو إله مثله ، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح الذى هو إله مساوٍ له فى الإلهية ، فصلب ابن الله الذى هو الله فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة[3] .

هذه ألفاظهم فى كتبهم ..

فأمة أطبقت على هذا فى معبودها ؟! كيف يكثر عليها أن تقول فى عبده ورسوله : إنه ساحر وكاذب وملك مسلط ونحو هذا ؟

ولهذا قال بعض ملوك الهند : « أما النصارى فإن كان أعداؤهم من أهل الملل يجاهدونهم بالشرع فأنا أرى جهادهم بالعقل ، وإن كنا لا نرى قتال أحد لكنى أستثنى هؤلاء القوم من جميع العالم ، لأنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة وشذوا عن جميع مصالح العالم الشرعية والعقلية الواضحة ، واعتقدوا كل مستحيل ممكناً ، وبنوا من ذلك شرعاً لا يؤدى إلى صلاح نوع من أنواع العالم ، ولكنه يصير العاقل إذا شرع به أخرق ، والرشيد سفيهاً ، والحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، لأن من كان فى أصل عقيدته التى جرى نشؤه عليها الإساءة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى : تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب [صـ٧٨ - ٨٣ ، ١٠١ - ١٠٩] . والنصيحة الإيمانية فى فضيحة الملة النصرانية [٥٦ - ٧٧] وإظهار الحق [٣/٢ - ٥٧] .

(٢) فى الأصل المخطوط «وكيف يكثر» والصواب ما أثبتناه .

(٣) انظر يوحنا : [١٩ : ١٣ ، ١٤] متى : [٢٧ : ٤٥ ، ٤٦]
لوقا : [٢٣ : ٤٤] مرقس : [١٥ : ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤]

إلى الخلاق والنيل منه ، وسبه أقبح مسبة ، ووصفه بما يغير صفاته الحسنى ، فأخلق به أن يستسهل الإساءة إلى مخلوق ، وأن يصفه بما يغير صفاته الجميلة ، فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم إلا لعموم أضرارهم التى لا تحصى وجوهها[1] كما يجب قتل الحيوان المؤذى بطبعه لكانوا أهلاً لذلك » اهـ .

والمقصود أن الذين اختاروا هذه المقالة فى رب العالمين على تعظيمه وتنزيهه وإجلاله ووصفه بما يليق به ، هم الذين اختاروا الكفر بعبده ورسوله ﷺ وجحد نبوته ، والذين اختاروا عبادة صور خطُّوها بأيديهم ، في الحيطان مزوقة بالأحمر والأصفر والأزرق لو دنت منها الكلاب لبالت عليها وأعطوها غاية الخضوع والذل والخشوع والبكاء وسألوها المغفرة والرحمة والرزق والنصر ، هم الذين اختاروا التكذيب بخاتم الرسل على الإيمان به وتصديقه واتباعه ، الذين نزهوا بطارقتهم وبتاركتهم[2] عن الصاحبة والولد ونحلوهما للفرد الصمد .. هم الذين أنكروا نبوة عبده وخاتم رسله ﷺ .

والذين اختاروا صلاة يقوم أعبدهم وأزهدهم إليها والبول على ساقه وأفخاذه فيستقبل الشرق ثم يُصَلِّب على وجهه ويعبد الإله المصلوب ، ويستفتح الصلاة بقوله : « يا أبانا أنت الذى فى السموات تقدس اسمك وليأت ملكك ولتكن إرادتك فى السماء مثلها فى الأرض أعطنا خبزنا الملايم لنا [3] . ثم يحدث من هو إلى جانبه ، وربما سأل عن سعر الخمر والخنزير وعما كسب فى القمار وعما طبخ فى بيته ، وربما أحدث وهو فى صلاته ، ولو أراد لبال فى موضعه إن أمكنه ، ثم يدعو تلك الصورة التى هى صنعة يد الإنسان .

فالذين اختاروا هذه الصلاة على صلاة من إذا قام إلى صلاته طَهَّر أطرافه وثيابه وبدنه من النجاسة ، واستقبل بيته الحرام ، وكَبَّر الله وحمده وسَبَّحه ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ناجاه بكلامه المتضمن لأفضل الثناء عليه وتحميده وتمجيده وتوحيده ، وإفراده بالعبادة والاستعانة وسؤاله أجل مسئول وهو الهداية إلى طريق رضاه التى خص بها من أنعم الله عليه دون طريق الأمتين المغضوب عليهم وهم اليهود والضالين وهم النصارى ، ثم أعطى كل جارحة من الجوارح حظها من الخشوع والخضوع والعبودية مع غاية الثناء والتمجيد لله رب العالمين ، لا يلتفت عن معبوده بوجهه ، ولا قلبه ، ولا يكلم أحداً كلمة ، بل قد فَرَغ قلبه لمعبوده

---

(١) فى أصل المخطوط «وجوهه» والأصوب ما أثبتناه .

(٢) البطْريق ، والبَطْرَك : عند اليهود ، هو العالم ، وعند النصارى رئيس رؤساء الأساقفة . والبتاركة : رؤساء الدين .

(٣) الصلاة نصها هكذا : «فصلوا أنتم هكذا . أبانا الذى فى السموات . ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض خبزنا كفافنا أعطنا اليوم . واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا لمذنبيّ إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة . لكن نجنا من الشرير . لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . آمين [متى ٦ : ٩ - ١٣] .

وأقبل عليه بقلبه ووجهه ، ولا يحدث فى صلاته ، ولا يجعل بين عينيه صورة مصنوعة يدعوها ويتضرع إليها .

فالذين اختاروا تلك الصلاة التى هى فى الحقيقة استهزاء بالمعبود لا يرضاها المخلوق لنفسه فضلا أن يرضى بها الخالق على هذه الصلاة التى لو عرضت على من له أدنى مُسْكَة من عقل لظهر له التفاوت بينهما .. هم الذين اختاروا تكذيب رسوله وعبده على الإيمان به وتصديقه واتباعه .

فالعاقل إذا وازن بين ما اختاروه ورغبوا فيه وبين ما رغبوا عنه تبين له أن القوم اختاروا الضلالة على الهدى والغى على الرشاد ، والقبيح على الحسن ، والباطل على الحق ، وأنهم اختاروا من العقائد أبطلها ، ومن الأعمال أقبحها ، وأطبق على ذلك أساقفهم[1] وبتاركهم ورهبانهم فضلاً عن عوامهم وسقطهم .

فصل : ولم يقل أحد من المسلمين إن ما ذكرتم من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد وراهب وقسيس كلهم تبين له الهدى ، بل أكثرهم جهال بمنزلة الدواب السائمة ، معرضون عن طلب الهدى فضلاً عن تبيينه لهم ، وهم مقلدون لرؤسائهم وكبرائهم وعلمائهم ، وهم أقل القليل وهم الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد تبين الهدى . وأى إشكال يقع للعقل فى ذلك ؟ ولم[2] يزل فى الناس من يختار الباطل ، ومنهم[3] من يختاره جهلاً وتقليداً لمن يحسن الظن به ، ومنهم من يختاره مع علمه ببطلانه كبراً وعلواً ، ومنهم من يختاره طمعاً ورغبة فى مأكل أو جاه أو رياسة ، ومنهم من يختاره حسداً وبغياً ، ومنهم من يختاره محبة فى صورة وعشقاً ، ومنهم من يختاره خشية ومنهم من يختاره راحة ودعة ، فلم تنحصر أسباب اختيار الكفر فى حب الرياسة والمأكلة .

فصـــل

[السؤال الثانى]

وأما السؤال الثانى وهو قولكم[4] : « **هَبْ أنهم اختاروا الكفر لذلك فهلا اتبع الحق من لا رياسة له ولا مأكلة إما اختياراً وإما قهراً ؟** » .

فجوابه[5] : أنا قد بينا أن أكثر من ذكرتم قد آمن بالرسول وصدقه اختياراً لا اضطراراً وأكثرهم أولو العقول والأحلام والعلوم ممن لا يحصيهم إلا الله ، فَرُقعة الإسلام إنما انتشرت

---

(١) الأسقف : رئيس من رؤساء النصارى فوق القسيس ودون المطْران . والجمع : أساقفة ، وأساقف .

(٢) فى المخطوطة « فلم » (٣) فى المخطوطة « فمنهم » :

(٤) أصل المخطوط « فصل » ، وأما المسألة الثانية وهى قولكم » وقد صححنا تبعا لما رأينا .

(٥) فى المخطوطة « فجوابه من وجوه » أحدها » ولم يذكر المؤلف وجوهاً .